مرجعيات كتاب الخليفة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص في ضوء نظرية المسالك والغايات*

The references of the book of Caliph Omar Ibn Al-Khattab to Amr Ibn Al-Aas in the light of the theory of paths and ends

أماني حسين عاطف [1]، د. أحمد نتّوف [2]

Amani Hussain Atef [1], Dr. Ahmed Nattof [2]

[1] كلية الآداب والعلوم - جامعة قطر، 199364137@qu.edu.qa

[2] كلية الآداب والعلوم - جامعة قطر nattofahmad@qu.edu.qa

ملخّص : تعرض هذه الدراسة تحليلا لنص كتاب الخليفة عمر بن الخطاب لوالي مصر عمرو بن العاص، في ضوء نظرية المسالك والغايات لصاحبها الباحث محمد محمد يونس، وحاولنا من خلالها توضيح بعض المرجعيات التي قام عليها الكتاب وهي: المرجعية التخاطبية، والمرجعية الواقعية، ومرجعية النص، ثم وضحنا المسالك التي بُني عليها الكتاب، وهي مسلك التركيب، والمسالك النظمية، والمسلك الحجاجي بحججه الثلاث، الإيتوس، واللوغوس، والباتوس، وبالسير على تلك المسالك والغايات يتضح لنا أن نص الكتاب كان نصا إنسانيا راقيا، فرسائل العدالة وحفظ حقوق الإنسان التي يتضمنها ليست حكرا على مجتمعٍ بعينه، في زمنٍ بعينه، بل هي رسالة إنسانية، ووصية أساسية لكل حاكم ينشد العدل والسلام والأمان لأرضه ولرعيته، ما يجعل هذا الكتاب نصا يعكس ما اتسمت به الحضارة الإسلامية من احترام للإنسان، ورحمة به، وتكريما له.

كلمات مفتاحية: نص، نظرية المسالك والغايات، المرجعيات، الخطاب، عمر بن الخطاب.

Abstract : This study presents an analysis of the text of Caliph Omar Ibn Al-Khattab's book for the governor of Egypt, Amr Ibn Al-Aas, in the light of the researcher Muhammad Muhammad Yunus' theory of paths and goals.–In fact the structure of the book is based on, the systemic path, and the argumentative path with its three arguments, the Aetos, the Logos, and the Patos. By following these paths and goals, it becomes clear that the text of the book was a refined human text. The messages of justice and preservation of human

* تاريخ استلام البحث: 2021/10/10 تاريخ قبول البحث: 2022/03/08 تاريخ النشر:2022/05/15

rights that it contains are not limited to society It is a human message and a fundamental commandment for every ruler who seeks justice, peace and security for his land. This makes this book a text that reflects the respect, mercy and honour of the Islamic civilisation that characterises human beings.

Keywords: text, Theory of Paths and Goals, References, Discourse, Omar Ibn Al-Khattab.

مقدمة :

كان ومازال التواصل الكتابي أحد الوسائل الهامة للحفاظ على الأفكار، ونقلها بأمانةٍ كما يرتأى لها صاحبها، حتى تصل لمتلقيها بالمعنى الذي يقصده في خطابٍ يختصر القول، ويوجز الفكر والشعور. ولأن للرسائل والخطابات فائدة وأثرا، كُتبت حولها المؤلفات لحفظها وتناقلها، باعتبارها إرثا فكريا وثقافيا وتاريخيا وسياسيا وأدبيا ودينيا، يعكس تاريخ الأمة بكل ما مرّت به من محطاتٍ، مثل كتاب جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة[1]، الذي اختير منه هذ الخطاب الذي يتضمن مبادئَ مازلنا بحاجة إليها حتى يومنا هذا، لتُسيِّر الحياة بعدالةٍ وأمان، فهو كتابٌ يحوي مبادئ صالحة لتنظيم حيوات الناس ومصالحهم، مثل كيفية العدالة في رعاية الناس، واللطف بأحوالهم بعدم الإثقال عليهم بالخراج أو الضرائب، بل تقنين جمعها حتى إن أُدِّيَت الغاية من تحصيلها، رفع الخراج عن الناس تخفيفا ورحمة، إضافةً إلى مكافحة طمع الولاة، وسد عيونهم عن خير البلاد، بفرض عطاءٍ كافٍ يعفّهم عن أموال الناس.

لكتاب الخليفة عمر أبعاد واقعية حياتية وإنسانية وسياسية، لذا، سنحاول من خلال تحليله معرفة (كيف يمكن للغة المنتقاة أن توصل رسالة إنسانية خالدةً ومؤثرةً إلى العالم)، وللوقف على قيمها سننظر في إنجاز الخطاب، بما يضمن فهم المخاطَب لمقصد القول وأغراضه، وكيفية إقناع المخاطَب والتأثير فيه لكي ينفّذ ما وُجِّه إليه تصريحا وتلميحا.

ولكي نتمكن من تحقيق ذلك كله، سنحلل الخطاب وفق مبادئ نظرية المسالك والغايات لصاحبها الباحث: محمد يونس علي، في كتابه "تحليل الخطاب وتجاور المعنى، نحو نظرية المسالك والغايات"، فما الأصول التي تقوم عليها هذه النظرية؟ وما مفاهيمها الرئيسة؟ وإلى أي مدى يمكن توظيفها لتحليل النص، وسبر أغواره؟

1. نظرية المسالك والغايات:

تقوم نظرية المسالك والغايات على فكرتين[2]:

"الأولى: أن الخطاب بنية معرفية مركّبة من الإحالات المرجعية" لا نستطيع فهمه ومعرفة أغراضه إلا بفهم المرجعيات الأساسية أو المتغيرة التي شكّلته، سواء كانت مرجعيات دينية أو ثقافية أو سياسية.

والثانية: أن الخطاب عملٌ إراديٌ ينتج من مسلك، ويرتبط بمقصد وغرض وغاية". كما تركز هذه النظرية على ثنائية اللفظ والمعنى، وتحليل الخطاب بما يحتويه من مضامين ترتبط بمرجعيات لغوية وسياقية وفكرية واجتماعية، خاصة وأن لها غرضا محددا[3].

كما حدد الباحث محمد يونس مرجعيات الخطاب بعدّة مرجعيات، يُحلل النص عبر مفاتيحها، نكتفي بأربع مرجعيات منها وحسب، نراها أساسية في تحليل النص، وفهم غايته، ونلخصها كما يأتي[4]:

- المرجعية التخاطبية: وهي التي تتعلق بالكفاية اللغوية للمتكلم، أي مدى تمكنه منها، وقدرته على استعمالها، ويشتمل مفهومها: الوقوف على مراد المتكلم.
- المرجعية الواقعية: وهي التي تهتم بإدراك العلاقة بين محتوى الخطاب ومحتوى العالم الخارجي.
- مرجعية النص: وهي التي تركز على إدراك العلاقة بين الجملة، ومجمل سياق النص، أو نصٍ آخر أوسع منه.
- مرجعية المحيط: وهي التي تتطلب معرفة واقع المحيط الفيزيائي الذي يُوجَّهُ فيه الخطاب.

ولكل مرجعية من تلك المرجعيات الأربع مسلكها الخاص الذي يتطلب تفسير المعاني الكامنة في لغة الخطاب، حتى نصل إلى مقصده وغايته، وكل ذلك لا يتم إلا باستحضار المرجعيات التي استند عليها المُخاطب في كتابه، فما مرجعيات رسالة الخليفة عمر بن الخطاب؟ وما الأغراض والغايات التي يهدف إلى إيصالها؟

2. نص كتاب الخليفة عمر بن الخطاب إلى والي مصر عمرو بن العاص[5]:

(أما بعد فأني فرضتُ لِمَن قِبلي في الديوان ولمن وَرَدَ علينا من أهل المدينة وغيرهم ممن توجه إليك وإلى البُلدان، فانظر من فرضتُ له ونزل بك، فاردُد عليه العطاء وعلى ذرِّيته، ومن نزل بك ممن لم أفرض له، فافرض له على نحو ما رأيتني فرضتُ لأشباهه، وخذ لنفسك مائتي دينار، فهذه

فرائضُ أهل بدر، من المهاجرين والأنصار، ولم أبلغ بهذا أحدًا من نظرائك غيرك، لأنك من عمال المسلمين، فألحقتك بأرفع ذلك.

وقد علمت أن مؤنًا تلزمك، فوفر الخراج وخذه من حَقّه، ثم عِفَّ عنه بعد جَمعه، فإذا حصل إليك وجمعتَه، أخرجتَ عطاء المسلمين، وما يحتاج إليه مما لا بدَّ منه، ثم انظر فيما بقي بعد ذلك فاحمله إلي، واعلم أن ما قبلك من أرض مصر ليس فيها خُمسٌ، وإنما هي أرض صلح، وما فيها للمسلمين فئ، تبدأ بمن أغنى عنهم في ثغورهم، وأجزأ عنهم في أعمالهم، ثم أَفِض ما فضُل بعد ذلك على من سمى الله.

واعلم يا عمرو أن الله يراك ويرى عملك، فإنه قال تبارك وتعالى في كتابه: "واجعَلنَا للمُتَّقينَ إِمَامَا" يريد أن يقتدي به، وإن معك أهل ذمة وعهد، وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وأوصى بالقبط فقال "استَوصوا بالقِبطِ خَيرا فإِنَّ لَهُم ذِمَّةً وَرَحِمًا" ورحمهم أن أم إسماعيل منهم، وقد قال صلى الله عليه وسلم "من ظلم معاهدا أو كلَّفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة"، احذر يا عمرو أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم لك خَصما، فإنه من خاصَمَه خصَمَه، والله يا عمرو لقد ابتليت بولاية هذه الأمة، وآنست من نفسي ضعفا، وانتشرت رعيتي ورقَّ عظمي، فأسأل الله أن يقبضني إليه غير مفرِّط، والله إني لأخشى لو مات جمل بأقصى عملك ضياعا أن أُسأل عنه).

3. مرجعيات الخطاب في رسالة الخليفة عمر إلى الوالي عمرو:

وفق نظرة الباحث محمد يونس، فإن خطاب عمر بن الخطاب يستند إلى مرجعيات عدّة، يتوجب على القارئ ومحلل النص أخذها بعين الاعتبار، "لأن عدم التنبه إليها يخرج النص من الغرض الذي صيغ لأجله"[6]، بمعنى إن عدم عودتنا إلى تلك المرجعيات سيؤدي بنا إلى تأويل النص تأويلا مغايرا لغرضه الأساس، لذا "سنبتعد في تحليل الكتاب عن جمالياته وبلاغته، فليست الغاية من تحليل هذا الكتاب هو شرح معانيه وتفسير إيحاءاته والوقوف على مقاصده وغاياته، بل التعرّف إلى مرجعياته وصولا إلى مقاصده الإنسانية.

1.3. المرجعية التخاطبية:

تتعلق المرجعية التخاطبية بالكفاءة اللغوية للمتكلم، ونقصد بالكفاية اللغوية: "مجموعة من القواعد التي تمكّن الفرد من تكوين عدد لانهائي من الجمل القابلة للفهم في لغته، وتمكنه من التحكّم في المكونات الصوتية والتركيبية والخطابية والتفاعلية والموسوعية"[7]، وعليه يتضح لنا أن المرجعية التخاطبية لكل من المرسل (عُمر) والمستقبل (عَمرو) تتصف بالآتي:

- علو اللغة، وثراء ملكتها ومعجمها اللغوي، بحيث يعي كل منهما تماما مواضعات اللغة الصرفية، والتركيبية، والسياقية، والمعجمية.
- القدرة على استنباط المعاني الظاهرة والضمنية للكلام.
- وجود طرف ثالث لهذا الخطاب وهو (نحن القرّاء) كمتلقّين لهذا الخطاب، ومتحدثين بالعربية نتشارك مع طرفي الخطاب في هذه المرجعية التخاطبية التي ستمكننا من تحليل الرسالة.

وبالنظر إلى كم الرسالة ومضمونها: نجد أن المخاطِب عمر بن الخطاب قد قدّم ما يناسب الموقف والسياق دون إطالةٍ أو مبالغة، كما تجنّب فيها روح الدعابة لأنها لا تتناسب وموضوعها المتعلق بهمٍ اقتصادي مادي يثقل كواهل الرعية، وتقوم عليه أرزاقهم ومصائرهم، بل حرص على التوجيه المباشر (واعلم) والتحذير (واحذر) والدعاء (اسأل الله أن يقبضني).

ونعتقد أن اختيار اللسان العربي الفصيح خطابا لرسالة عمر دونا عن الألسن الأخرى - رغم تنوع المشارب الثقافية ووجود أهل الذمة في أصقاعها - إشارة إلى اللغة الرسمية في دولة الإسلام، فهي لسان الحُكم والفصل، ولسان الأمر والطلب، ولغة التوجيه والإرشاد، ولسان المخاطبات الرسمية، ولسان القرآن والحديث.

2.3. المرجعية الواقعية:

تهتم المرجعية الواقعية – كما عرفناها سابقا - بإدراك العلاقة بين مضامين الخطاب والعالم، فما وضعُ العالم قبل إنشاء هذا الخطاب؟ وما المضامين التي تحدّث عنها الخليفة عمر وبدت – حتى يومنا هذا - قضايا عالمية معاصرة في خطابه؟

إن المتأمل في خطاب الخليفة عمر يدرك كيف كان حال الناس في فترة ما قبل الخطاب، فجمع الخراج قد شقَّ عليهم، كما نفهم أنه لم يكن لأهل مصر فَرضا - أي مبلغاً ماليا - يُصرف لهم ليعينهم على ثقل الحياة، ولم يكن لعمرو مكافأة قبل هذا الخطاب، كما أنه لم يكن هناك حلٌّ حاسمٌ مانع لجمع قيمة المؤن التي تلزم عمرو لأداء مهام ولايته، بل كان الأمر لحظيا عشوائيا مرتهنا بأوامر عمرو، لذا جاء الخطاب مفصِّلا سياسة جمع الخراج ثم العفّ عنه، بعد تحقق الغاية من جمعه، كما يدرك المخاطَب أن أرض مصر بعد الخطاب أصبحت تعامل معاملةً واحدة، سواء ما فتح منها

صلحا، أو فتح بالسيف، وأن ما فيها من خيرات فيءٌ للمسلمين، وهذه الحقيقة لم تكن شديدة الوضوح قبل الخطاب.

إذن فرسالة عمر حملت شيئا من صورة الحياة في عهد الخليفة عمر، وبيّنت لنا وضعا يصعب استحضاره فيزيائيا كونه قد مضى وانتهى، ولكن يمكننا تصوره من خلال اللغة، فالواقع الذي تعكسه رسالة عمر كما نفهمه هو: ضرورة تحقيق العدالة بين الناس، ورعايتهم وعدم الإثقال عليهم، والإحسان إليهم، وتقدير حالهم فيما يتعلق بالجانب المادي، فلا يفرض الخراج إلا لغرض، فإن تحقق رُفِعَ عنهم ثقل الخراج، حتى لا يتسبب التعسير على الناس في مشاكل منها السرقة بسبب الحاجة، كما حملت الرسالة قيما هامة مثل: مكافحة طمع الولاة، وسد عين الوالي بعطاء يكفيه، ومكافأته وتقديره ماديا إن فَضُل وامتاز على غيره.

3.3. مرجعية النص:

عرفنا أن مرجعية النص تهتم بإدراك العلاقة بين الجملة ومجمل سياق النص، ونص هذا الكتاب ينتمي إلى عدّة سياقات منها التاريخي، والأدبي والسياسي والديني، ولكل منها مرجعية محددة، فوجوده في كتب التاريخ يعني أن المرجعية الواقعية والإعلام والإخبار هو الموجه لمعانيه، ووجوده في كتب الحديث سيجعل منه دليلا وحجة، ووجوده في كتب الأدب يفعّل المرجعية الأسلوبية، مما يعني أن النص ينتمي إلى عدة مرجعيات، إلا أن الحل الأفضل هو العودة إلى النص ذاته، وتحليل سماته (ككتاب) لسبر معانيه.

فالنص ورد بوصفه (كتابا) من عُمر إلى عمرو بن العاص، في عدة كتب منها: كتاب الطبقات الكبير[8] لمحمد بن سعد بن منيع الزهري 230 هـ (الزهري، 2001)، وكتاب كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال[9]، لعلاء بن حسام الهندي 975 هـ (الهندي، 1998)، إضافةً إلى موسوعة آثار الصحابة[10] لأبي عبد الله سيد بن كسروى حسن (حسن، 1996)، وكتاب تاريخ عمرو بن العاص[11] للباحث حسن إبراهيم حسن (ابراهيم، 1996)، وكتاب أشهر مشاهير الإسلام في الحروب والسياسة[12] لرفيق العظيم (العظم، 2018).

فأن يُصنف هذا الخطاب بأنه (كتاب) فذلك يعني أن مضمونه عالي الأهمية، لذا، نعتقد أن الخليفة عمر آثر مكاتبة المخاطَب لا مشافهته؛ لإيصال الفكرة كما رسمها في ذهنه، وليظل الكتاب مدونا موثّقا محفوظا لحساسية وأهمية محتواه، ولإزالة أي غموضٍ عنه، يتعلق بأحوال الرعية المسلم منهم

وغير المسلم، وفيه وصاية خاصة لأهل الذمة، وتحذير من الظلم ليس خوفا من عمر، بل خوفا من أن يكون بهذا الظلم خصما لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا نغفل دور المخاطَب في إنجاز النص، فالنص موجه إلى رجل سياسي محنك، ووال من ولاة المسلمين، وفاتح لأرض مصر، كل ذلك وجّه الخليفة عمر إلى التأكيد بلغةٍ صريحة على ما يتوجب من عمرو عمله كوالٍ، كالتحذير من الظلم.

كانت تلك وقفتنا مع مرجعيات كتاب الخليفة عمر بن الخطاب إلى واليه في مصر عمرو بن العاص، ومن هذه المرجعيات ننطلق إلى المسالك والغايات في:

4. مسالك الكتاب:

يدل المسلك في لغة الخطاب على الطريق والمذهب، ويوحي بمعاني الدقة والوسيلة والاختيار والسلوك والتصرّف، وكل ذلك يشير إلى أن المسلك هو الطريق إلى مقصد المتكلم، ووسيلته لتحقيق غاية الخطاب[13]، وبناء على نظرية المسالك والغايات سنكتفي بتحليل الكتاب وفق مسلك التركيب، والمسالك النظمية، والمسلك الحجاجي.

1.4. مسلك التركيب:

نقصد بمسلك التركيب الاستراتيجيات والبُنى المفصلية الكُبرى المُشكِّلة للنص وهي (السند والمتن)[14]، فالسّند: هو "سلسلة الرّجال الموصلة للمتن، ويُستفاد منه معرفة حال الحديث من حيث الصّحة والضعف، والمتن: هو ما انتهى إليه السّند من الكلام"[15] ويمكن إيجاز القول في سند ومتن الكتاب بالآتي:

أ- سند الكتاب: بالعودة إلى كتابَي: أشهر مشاهير الإسلام لرفيق العظم (العظم، 2018)، وكتاب الطبقات الكبير للزهري (الزهري، 2001) نجد سند الكتاب كالآتي (حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي سبره، عن موسى بن جبير عن شيوخ من أهل المدينة)، فكون الكتاب يبدأ بعطاءٍ مقصودٍ لأهل المدينة المنورة كان من المنطقي أن يتناقله بالرواية أهل المدينة خاصة، فهذا العطاء بمثابة تقديرٍ وإكرامٍ مادي ومعنوي لأهل مدينة رسول الله صل الله عليه وسلم.

ب- متن الكتاب: ينقسم متن الكتاب إلى جهة الإرسال، والاستهلال، وبنية النص، وخاتمته[16]، فأما عن جهة الإرسال، فهي التي تحمل صفة المرسل واسمه، حيث يوردها الخليفة عمر في بعض مكاتباته إلا أنه لم يورد ذكرها في هذا الكتاب لمعرفة المتلقي (عمرو بن العاص) به معرفة تامة، وكثرة المكاتبات بينهما، كما لم يُستهل الكتاب الذي بين أيدينا بعبارات الحمد والثناء على

الله وتوحيده كما يرد في رسائل عمر، ووفقت ماجرت عليه العادة، وأغلب الظن أن الخليفة عمر بدأ بها أحاديثه ومكاتباته سنةً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا أنها لم ترد موثقةً في هذا الكتاب لتركيز الناقل على محتوى المتن أكثر من غيره.

بالانتقال إلى بنية الكتاب فنجدها تحوي مضمون الكتاب وأفكاره، بداية من قول عمر (فإني فرضت لمن قِبلي في الديوان... إلى قوله: والله إني لأخشى لو مات جمل بأقصى عملك ضياعا أن أُسأل عنه)، أما عن الخاتمة، التي غالبا ما تنتهي بتحية الإسلام فكل المراجع لم توثق خاتمة الكتاب، وأغلب الظن أن الكتاب قد اختتم بها كما هي عادة التخاطب المكتوب آنذاك، ونعتقد أن موثّقي النص تجاهلوها كما تجاهلوا عبارة الاستهلال، ربما لتركيزهم على متن الكتاب ومضمونه.

2.4. المسالك النظمية:

نقصد بالنَّظم: "ضم الكلام بعضه إلى بعض متراصا مترابطا يكمّل بعضه بعضا، فيتعلق كل جزء من الجملة بغيره من الأجزاء"[17]، ونجد تنوعا في المركّبات الواردة في الكتاب، كمركب الشرط (من نزل بك... فافرض له)، (فإذا حصل... أخرجتَ عطاء المسلمين)، (من خاصمه خصمه)، ومركب النداء (اعلم يا عمرو أن الله يراك)، كلها جاءت متراتبة مراعية القواعد اللغوية، كما غلب عليها التنوع بين الإنشاء (في أفعال الأمر: افرض، اعلم، افضِ)، والخبر (في التأكيدات مثل إني، إنك، قد).

فعلى مستوى المعنى اتسمت التراكيب بالتراصف لتأكيد الفكرة الأولى التي بُني عليها الكتاب، وهي فكرة العدالة والرحمة بالرعية ومنهم أهل الذمة، أما على مستوى القصد: فالخليفة عمر يقصد إلى (إعلام) مخاطبه بهذه الفكرة وترسيخها، حيث كرر الخليفة عُمر (واعلم) وكأنه يقصد تعليمه الأمر بشكل مباشر، قاطعا مجال التردد أو الاجتهاد، فجاء كل محمول يستحضر معه موضوعا جديدا مثل (الرعية، الأقباط، الفيء) وكلها غير متعارضة، ولا منفصلة، بل تتسق مع كامل النص.

كما اتضح في الكتاب كذلك مراعاة الخليفة عمر اختيار كلماته لتتوافق مع غرضه، فقد استخدم كلمات مثل (العطاء) بدلا من (صدقة أو هبة)، ففي العطاء معنى السخاء والخير والتقديم بمحبة، وقال (هذه فرائض) ولم يقل (هذه صدقات)، نظرا لمكانة أهل بدر واصطفائهم في الغزوة الأولى لرسول الله قد افترض على الجميع احترامهم وتوقيرهم ماديا ومعنويا، وقال (فألحقتك بأرفع من ذلك) بدلا من (أفضل أو خير)، ففي الرفعة معنى السمو والعلو والتمييز عن غيره من الولاة،

بينما التفضيل متفاوت بين الناس، وقال (عفّ) بدلا من (توقّف) فالعفاف عن أخذ الخراج فيه رفق وتلطف بأحوال الناس رحمة بهم، رغم حاجة الدولة إلى هذا المال لغرض الإعمار والبناء.

وعليه، نعتقد أن كل كلمة اختارها الخليفة عمر في سياق خطابه كانت منتقاةً لغاية ومعنى، مما يدل على أن الرصف والاستبدال والتموضع شكّل كل منها المعنى الكلي لنص الكتاب، لينفي أي غموضٍ حول سياسة التعامل المالي مع الرعية من المسلمين وغيرهم.

3.4. المسلك الحجاجي:

يعرّف ابن منظور الحِجاج في لسان العرب في مادة (ح ج ج): "الحُجّة ما دوفع به الخصم، واحتجّ بالشيء اتخذه حُجّة"[18]، (ابن.منظور، 2007، 38)، ويعرّفه بيرلمان بقوله: "حمل المتلقي على الاقتناع بما نعرضه عليه، أو الزيادة في حجم هذا الإقناع"[19]، (الدريدي، 2001، 28)، فالمفهوم الرئيس لمصطلح الحجاج هو التأثير في المتلقي لأنه "العملية التي من خلالها يسعى المتكلم إلى تغيير نظام المعتقدات والتصورات لدى مخاطبه بوساطة الوسائل اللغوية"[20]، وجوهر مصطلح الحجاج ووظيفته كما تشير التعريفات هو التأثير في السامع سواء كان الحجاج خطابا شفهيا أو مكتوبا، ويقوم الحِجاج على ثلاث حجج رئيسة هي: (الإيتوس، واللوغوس، والباتوس)، لكل منها مفهومها الذي سنوضحه فيما يلي:

1.3.4 حجة الإيتوس:

نقصد بالإيتوس ما ترسمه الذاكرة الجمعية من إيجابيات، أي الصورة المتخيلة لصاحب الخطاب لدى المتلقين، من خلال معرفتهم السابقة به، سواء كانت معرفتهم به أثناء أو قبل إلقاء الخطاب[21]، فصورة الخليفة عمر في ذهن المتلقي قبل الخطاب - سواء في ذهن الوالي عمرو أو في أذهاننا نحن المتلقين - هي صورة الحاكم القوي العادل الذي لا يُماري في الحق، بل ويخافه الشيطان لفرط قوته في الحق، فللخليفة عمر مكانته الدينية والسياسية والتاريخية المهيبة التي لا تخفى على مسلم، فكل ذلك يكسب خطاب عمر التأثير في المتلقي، والتأثير في قناعته فتجعله مُرحبا مسلِّما بما سيأتي به الخطاب.

وحجة الإيتوس في كتاب الخليفة عمر تتمثل في صفاته الشخصية، وأخلاقه وقيمه وسياسته ونظرته للأشياء، وكأنه يقول من خلال كتابه (أنا العادل، المقدّر لظروف الرعية، أنا الراحم للمسلم

والقبطي، أنا المستن بهدي الله ورسوله، أنا الخائف من أن أظلِم، أنا المتقي الله)، وذلك كله يؤثر في المتلقي أيّما تأثير، كما أن معرفة المتلقي بهذه الصفات في الخليفة عمر تحفزه على الاقتناع بفحوى الخطاب ومضمونه.

وبالنظر إلى تكرار فعل الأمر (اعلم، افرض، عفّ) تدل على رغبة الخليفة عمر في تعليم الوالي عمرو وإرشاده مباشرة، وبشكل واضح لا لبس ولا غموض فيه، فالمرجعية التي يستمد منها توجيهاته وقوته وهي مرجعية السلطة، كونه خليفة المسلمين، الذي يأتمر الولاة بأمره، كل ذلك مما يؤثر في المخاطب ويدفعه للاقتناع بالخطاب، والتأثر به.

2.3.4. حجة اللوغوس:

ظهر مصطلح اللوغوس في الفكر اليوناني للتعبير عن "العقل والكلام والخطاب واللغة"[22]، مما يعني أن اللوغوس يتضمن إقناع المتلقي بحجة قوية يقبلها عقله كمسلمات، وهذا ما نقصده في سياق تحليل كتاب الخليفة عمر، لنبين أن الكتاب تضمن جملة من "الحجج غير القابلة للجدل، ليأخذها المتلقي كمسلمات للربط بينها وبين الواقع"[23].

فقد ظهرت حجة اللوغوس في كتاب عمر باختياره مفردات الجمل التأسيسية لإقناع المخاطب مثل (هذه فرائض أهل بدر) (اعلم أن ما قِبلك من أرض مصر ليس فيها خمس)، (إنما هي أرض صلح، وفيها للمسلمين فيء)، (إن الله يراك ويرى عملك)، (إن من خاصمه خصمه)، وكأنه يقدم حقائق غير قابلة للجدل أو الاستدلال، وأوضحها للربط بسياسة التعامل مع أهل الذمة في أرض الإسلام، وفيها إلزام للمخاطب بالتنفيذ، لأن تنفيذ ما أُمر به هو باب من أبواب التقوى، والاهتداء بسنة الرسول، وبُعدٌ عن الظلم.

كما أن توظيف الروابط في النص له دوره الحجاجي في الربط بين أفكار النص ومعانيه وأغراضه، إذ إنها "تقوي السيرورة الحجاجية في الخطاب"[24]، فنجد الخليفة عمر يتبع استراتيجية معينة في إيراد الأوامر، فهو يبدأ بفعل الأمر، ثم يبرر له، ويعلل له مستخدما (لأن، أو فاء السببية)، (واعلم ... فإن)، (لأنك من عمال المسلمين)، لبيان الأمر وإزالة الغموض أو التساؤل، كقوله (لم أبلغ أحدا من نظرائك غيرك، لأنك من عمال المسلمين)، فالخليفة عمر يوضح لعمرو أنه اختصّه بعطاءٍ فضّله به على غيره من الولاة، فبرر ذلك ليزيل أي استفهامٍ قد يتأتى في ذهن المتلقي

موضحا أن هذا العطاء يعد تكريما لعمرو كونه من عمّال المسلمين، وكأنه يساويه بأهل بدر في منزلتهم العالية.

أيضا قول الخليفة عمر: (اعلم أن ما قِبلك من أرض مصر ليس فيها خمس، إنما هي أرض صلح، وفيها للمسلمين فَيء)، فهو يوضح أن ما حوته أرض مصر هو أرض فئ للمسلمين، والسبب أنها أرض صلح حتى ما فتح منها عنوة، وأيضا قوله (احذر أن يكون رسول الله لك خصما)، وبين السبب (فإنه من خاصمه خصمه)، نلاحظ إذن في كتاب عمر أنه يورد الأمر ثم يبرر له ويفسر أسبابه، لإقناع المُخاطب والتأثير فيه، ليطيع وينفذ ما طلب منه.

3.3.4. حجة الباتوس:

أهم ما تستهدفه حجة الباتوس هو "عواطف السامع وأهوائه، وكل ما يتعلق بالقيم الذاتية والانفعالية للمخاطَب"[25]، لأن ذلك أدعى إلى استمالته، والتأثير فيه، مما يسهم بشكل فاعل ومؤثر في تحقق الغرض من الخطاب.

المتكلم يدرك مخاطِبه لذا يختار له اللغة التي تناسبه للتأثير على عاطفته ومشاعره وأهوائه، لذا، نوّع الخليفة عمر في خطابه بين والأمر والترغيب، والتذكير بأقوال الله ورسوله.

فقد اختار مسلك الترغيب والتكريم بالعطاء الذي يحمل معاني الحرص والاهتمام والحب، واختار النصيحة مؤثرا في حس المتلقي الديني والثقافي: (الرحمة بالأقباط)، إكراما للنبي. واختار التحذير في قوله: (احذر أن يكون الرسول لك خصما)، لأنه يدرك ألا طاقة لمؤمن بذلك، واختتم كتابه ببيان واقع يؤكده للمخاطَب مؤثرا فيه كوالٍ للمسلمين، حين أقسم عمر قائلا: (والله يا عمرو لقد ابتليت بولاية هذه الأمة... والله إني لأخشى...)، فهذا القسم تأكيد مباشر للتأثير على عمرو بثقل مسؤولية الحكم، وأنه تكليف لا تشريف، وتخويف له من جريرة الظلم.

4.4. غايات الكتاب ومقاصده وأغراضه:

الغاية لغةً "هي مدى الشئ ومنتهاه... وفكرة الغايات التخاطبية ترتبط مباشرة بالأسباب التي من أجلها نستخدم اللغة"[26]، أما الأغراض فهي الأهداف التي ترمي إليها. وإذا كانت الغايات في معناها تتسم بالعمومية والتجريد والكلية، فالمقاصد تتسم بالجزئية والحسية والآنية، أما الأغراض فهي

وسط بين هذا وذاك، "وعليه فإن هدف المتكلم ينتقل بالتدريج من الغايات إلى الأغراض إلى المقاصد[27].

يمكننا القول بأن المقصد العام الذي يقوم عليه النص هو بيان سياسة التعامل مع الرعية من المسلمين وأهل الذمة، وقد أظهر النص عدّةَ أسس توضح هذا التعامل:

- فرض العطاءات لأصحابها، إكراما وتقديرا كقيمة مادية ومعنوية.
- العدالة في فرض الخراج فلا يؤخذ إلا من حقه لإصلاح البلاد، ثم رفعه حتى لا يشق على الرعية.
- الوصاية الخاصة بالأقباط إكراما لوصية رسول الله.
- التذكير بعظم مسؤولية الولاية في نهاية متن الخطاب.

ومرجعية تلك الأسس تتمثل في (القرآن والسنة)، وآليته تبدأ بتنفيذ الأمر الصادر من المتكلم بتنفيذ العطاء المفروض، عندما قال عمر: (انظر من فرضت له، فاردد عليه العطاء)، ثم الانتقال إلى (سياسة الخراج والعف عنه: فوفر الخراج ثم عفّ عنه)، ثم (سياسة التعامل مع أهل الذمة: وإن معك أهل ذمة وعهد أوصى رسول الله بهم)، فالمعاني كلها لم تتجاوز معنى العدالة، والإحسان، والتقدير المادي، والمعنوي.

والغرض الرئيس من الكتاب هو (تعليم عمرو بن العاص سياسة التعامل مع الرعية من المسلمين وغيرهم)، لغايه يقصدها المتكلم وهي إقامة العدالة، والرحمة بأحوال الرعية)، والعمل بهذا الكتاب يحفظ حق الناس، ويحد من الإثقال عليهم ويمنع الظلم، وبذلك نرى كيف أن للغة القدرة على ترتيب العالم، وتكون بألفاظها ومعانيها وسياقاتها سبيلا لإقامة العدالة ومنع الظلم، وحفظ النفس والمال، وحفظ الحقوق والكرامة.

أما عن غاية هذا الكتاب فهو التأثير في الوالي عمرو بن العاص، تأثيرا يدفعه إلى مراعاة أحوال الرعية، ويدفعه إلى تجنب الظلم وخشية الله حتى لا يشكوه أحد إليه.

خاتمة:

عرضنا تحليلا لنص كتاب الخليفة عمر بن الخطاب لوالي مصر عمرو بن العاص، في ضوء نظرية المسالك والغايات، ووضّحنا فيه المرجعيات التي قام عليها النص وهي المرجعية التخاطبية،

والمرجعية الواقعية، ومرجعية النص، ثم عرجنا على المسالك التي بُنيت عليها الرسالة، وهي مسلك التركيب، والمسالك النظمية، والمسلك الحجاجي بحججه الثلاث، الإيتوس، واللوغوس، والباتوس، وبالسير على تلك المسالك والغايات يتضح لنا أن نص الكتاب كان نصا كونيا إنسانيا راقيا، فالرسالة التي يتضمنها - من وجود العدالة بين الرعية، وعدم الإثقال عليهم ماديا، وخشية الله ورسوله، إضافةً إلى مكافأة الولاة وتقديرهم ماديا ومعنويا - ليست حكرا على مجتمعٍ بعينه، في زمنٍ بعينه، بل هي رسالة إنسانية، ووصية أساسية لكل حاكم مسلم ينشد العدل والسلام والأمان لأرضه ولرعيته، ما يجعل هذا الكتاب نصا يعكس ما اتسمت به الحضارة الإسلامية من احترام للإنسان، ورحمة به، وتكريم له، ونفترض أن التراث العربي والإسلامي يزخر بمثل هذا النوع من النصوص التي تبيّن عدل المسلمين وتحضرهم واحترامهم لحقوق الإنسان، وندعو فتح آفاق البحث لتناول هذه النصوص والتعرّف على ما تحمله من قيم إنسانية كونية أصيلة، مستمدة من روح الإسلام السَّمحة، المحبة للخير والعدالة.

الهوامش

1

ص: 144.

2

ط 1، عمّان، الأردن، (2016)، ص: 6.

3 المرجع نفسه: ص: 12.

4 المرجع نفسه، ص: 27 – 66.

5 صفوت، أحمد زكي: مرجع سابق ص: 146.

6 يونس، محمد محمد: تحليل الخطاب وتجاوز المعنى: نحو نظرية المسالك والغايات، ص: 87.

7

(2003)، ص: 75.

8

القاهرة، (2001).

9

الكتب العلمية، بيروت، (1998).

10 بن كسروى، أبي عبدالله سيد حسن: موسوعة آثار الصحابة، دار الكتب العلمية، بيروت، (1996).

11 إبراهيم، حسن: تاريخ عمرو بن العاص، مكتبة مدبولي، القاهرة، (1996).

12 العظم، رفيق: أشهر مشاهير الإسلام في الحروب والسياسة، دار الفكر العربي، بيروت، (2018).

13 يونس، محمد محمد: تحليل الخطاب وتجاوز المعنى: نحو نظرية المسالك والغايات، ص: 77.

14المرجع نفسه، ص: 72.

15 الفريح، عبد الله محمود: مصطلح الحديث (تعريفه - فوائده - غاياته)، 2013/11/2، موقع الألوكة: رابط: https://www.alukah.net/sharia/0/61993/#ixzz7DRgjpoas

16 يونس، محمد محمد: تحليل الخطاب وتجاوز المعنى: نحو نظرية المسالك والغايات ، ص: 106.

17 المرجع نفسه، ص: 108.

18

بيروت، (2007)، ص: 38.

19 الزهري، محمد بن سعد بن منيع: الطبقات الكبير، المجلد 1، ص: 28.

20 صولة، عبد الله: في نظرية الحجاج، مسكلياني للنشر، ط 1، تونس، 2011، ص: 68.

21

2010، ص: 94.

22 عبيد، حاتم: في تحليل الخطاب، دار ورد الأردنية للنشر، ط 1، عمّان، ص: 92.

23 صولة، عبد الله: في نظرية الحجاج، ص: 309.

24 العزاوي، أبو بكر: اللغة والحجاج، العمدة للطبع، ط 1، الدار البيضاء، 2006، ص: 26.

25 الولي، محمد: في خطابة أرسطو الباتوسية، مجلة علامات، المغرب، العدد 26، 2006، ص: 48.

26 يونس، محمد محمد: تحليل الخطاب وتجاوز المعنى: نحو نظرية المسالك والغايات ، ص: 82 - 83.

27 يونس، محمد، محمد: تحليل الخطاب وتجاوز المعنى: نحو نظرية المسالك والغايات ، ص: 85.